الفصل الرابع

مكانة شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون العلمية والسياسية والقضائية

بلغ الإمام شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون مكانة علمية وسياسية مرموقة سواء في عصر نور الدين محمود زنكي أو عصر صلاح الدين الأيوبي، وكان دائما يعد من كبار رجال الدولة في القضاء والسياسية.

وقد استطاع ان يقيم علاقة ممتازة مع القاضي الفاضل أحد رجال الادارة الأفذاذ زمن صلاح الدين الأيوبي ومع عماد الدين الأصفهاني الكاتب المشهور صاحب الأسلوب البلاغي، ومع القاضي كمال الدين الشهرزوري الرجل الفذ في القضاء أيام نور الدين وصلاح الدين الأيوبي، ومع الأمراء المشهورين أيام صلاح الدين ونور الدين محمود زنكي من قبله كعيسى الهكاري الذي كان يحب استاذه الإمام شرف الدين كثيرا، والذي يعد من تلاميذه الأذكياء ولم نشر إليه عند الكلام عن تلاميذ ابن أبي عصرون لنذكره هنا في هذا المجال. وقد كان عيسى الهكاري من الرجال الأقوياء الذين ايدوا تولي الإمام شرف الدين بن أبي عصرون قضاء قضاة الشام عام ٥٧٢هـ كما مر ذكره.

وقد اشتغل الإمام شرف الدين سفيراً ما بين الشام وبغداد[١]، وقام بأعمال شهد له بها الجميع أيام الأزمات في الدولتين النوريه والصلاحية. ولعل مرد ذلك كله يعود إلى شخصية ابن أبي عصرون المحببة إلى النفوس والمتسلحة بالعلم والسياسة والقضاء.

وقد مر بنا كيف استطاع شرف الدين ان يكون شخصيته العلمية متنقلاً ما بين الموصل وبغداد وحلب ودمشق آخذا عن مشايخ العصر وعلمائه متأثراً

---

(١) الذهبي: المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي ٢/١٥٩.

بما رأى ومحاولاً التأثير بمقدار ما يستطيع. وقد اكسبته العلوم التي حذقها في الفقه والقراءات والأدب والنحو والأصول والخلاف شيئا كثيراً في هذا الجانب من جوانب شخصيته أهَّله لأن يفرض نفسه على الاحداث في المنطقة، بل وأصبح يتمتع بمركز مرموق في القضاء والسياسة.

ولعل أهم دليل على هذا أن نور الدين محمود بن زنكي المحب للعلم وأهله قد استدعاه من سنجار حيث كان يقيم وأكرمه وأقام له مجموعة من المدارس في دمشق وحلب وحمص وحماه وبعلبك ومنبج وغيرها ذكرنا أنها عرفت باسم المدارس العصرونية[1].

ثم استمر ابن أبي عصرون يحرك الاحداث بمقدار ما يستطيع واستطاع ان يلتحق بخدمة نور الدين محمود زنكي ويشارك معه في حروبه ومعاركه. وكان على رأس قواته العسكرية المتجهة من حلب إلى السيطرة على دمشق عام ٥٤٩هـ[2].

ولما سيطر نور الدين على دمشق ودخلتها قواته منتصرة أكرم شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون وفوَّض إليه التدريس في الزاوية الغربية من المسجد الأموي (المدرسة الغزالية). ولم يكتف بهذا العمل بل ولاّه نظر الأوقاف لجميع المساجد في مملكته[3].

---

(١) الطباخ الحلبي: اعلام النبلاء ٤/٢٧٩.
عمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام ص ١١٠.
(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧/١٣٣.
الاسنوي: طبقات الشافعية الصغرى ٢/١٩٤.
ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤/٢٨٣.
(٣) الذهبي: العبر في خبر من غبر ٤/٢٥٦.
عبدالصاحب الدجيلي: اعلام العرب في العلوم والفنون ٢/١٣

ومعنى هذا توطيد العلاقات بين الرجلين. كما أنه يدلنا على مقدار الثقة التي نالها شرف الدين والمكانة التي وصل إليها. ولكن ابن أبي عصرون سرعان ما عاد إلى حلب. وليس معنى هذا أن علاقته قد ساءت بمحمود نور الدين زنكي أو اعتراها الوهن أو ضعفت، ولكنها ظلت متميزة عن غيرها. بدليل ان شرف الدين استطاع بعدها أن يدخل إلى مكامن نفس زنكي واصبح يقوم بعمل المستشار لديه. وقد مارس هذا العمل فعلاً أثناء ذهاب نور الدين محمود زنكي عام ٥٦٦هـ على رأس قواته لاخضاع الموصل بلد ابن أخيه السلطان سيف الدين غازي الثاني.

وكانت اوضاع الموصل في تلك الفترة غير مُطَمْئِنة لنور الدين محمود الذي يقارع العدو الصليبي. والسبب ان شخصية سيف الدين غازي الثاني كانت في اوائل ولايته ضعيفة أمام نائبه فخر الدين عبدالمسيح الذي اسلم ظاهريا ولم يحسن اسلامه بل قيل انه يهودي، في بيته كنيس يتعبد فيه. وما إسلامه الاّ ظاهريا ليستطيع ان يتوصل إلى الحكم.

واستطاع ان يسيطر على سيف الدين غازي الثاني ويتحكم بأمور الموصل بأسمه حتى ان ابن الأثير[1] نعت سيف الدين بانه لم يملك من الحكم شيئاً فالحاكم هو فخر الدين عبدالمسيح.

ولما دخل نور الدين محمود الموصل عام ٥٦٦هـ أذعن فخر الدين وطلب الأمان والصلح ليحفظ ماء وجهه ولعله يستطيع كسب ود نور الدين محمود. والمهم هنا أن نور الدين محمود لم يوقع وثيقة الصلح الاّ بعد أن نظر بها شرف الدين بن أبي عصرون ومدحها قائلاً: «نسخة جيدة» عندئذ امضاها نور

---

(١) ابن الأثير: الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية في الموصل ص ١٤٦.
ابن الأثير: الكامل ١١/٣٦٢.

الـدين محمـود وحلف اليمـين وتعهـد باستمرار الصلح مع الموصل[1].وما حكامها الاّ ابناء أخيه وتعتبر الموصل رديفاً حقيقياً لنور الدين في صراعه مع العدو الصليبي تمده بالمال والرجال والسلاح متى أراد.

ثم إن شرف الدين بن أبي عصرون كان رسول نور الدين زنكي عام ٥٦٦هـ إلى بغـداد ليرفـع التهاني والتبريكات إلى مقام المستضيء العباسي ويعلن لهأن الخطبة باسمه جارٍ العمل بها في البلاد التي يسيطر عليها نور الدين محمود بن زنكي. وكان من المقرر ان يذهب عماد الدين الأصفهاني ليقوم بهذه المهمة ولكنه احجم عن السفر عندما أعلن شرف الدين بن أبي عصرون رغبته في السفر مما جعل الأصفهاني وغيره يباركون رغبته في الذهاب إلى بغداد . وما هذا الا دلالة على مدى الاحترام والتقدير الذين يتمتع بهما شرف الدين ابن أبي عصرون من قبل نور الدين محمود وكبار رجال دولته وأمرائه.

ثم ان ثقة نور الدين كانت مطلقة بشرف الدين بن أبي عصرون فقد عهد إليه بعد اخضاع الجزيرة والموصل إلى نفوذه عام ٥٦٦هـ بأن يتولى شئون القضاء في سنجار ونصيبين والخابور وحران وغيرها اكراما له وعرفاناً بجميله، فقبل شرف الدين هذه الولاية وأناب عنه في تلك النواحي[2].

وكـان لشرف الدين بن أبي عصرون شرف زف البشرى العظيمة إلى

---

(١) البنداري: سنا البرق الشامي ص٥٣/٥٤.
أبوشامة: كتاب الروضتين ١/١٩١.

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ص ٥٢ مصدر سابق.
أبو شامة: كتاب الروضتين ١/١٨٩ مصدر سابق.
ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٦٣ مصدر سابق.
الطباخ الحلبي: أعلام النبلاء ٤/٢٧٩ مرجع سابق.

الخلافة العباسية في بغداد بقيام الخطبة العباسية في القاهرة بعد القضاء على الخلافة الفاطمية هناك على يد صلاح الدين الأيوبي تلميذ نور الدين زنكي عام ٥٦٧هـ وذلك بأن كان ولده شهاب الدين أبوالمعالي هو الرسول الموفد إلى بغداد بالبشرى، وقد وصلها في ٢٢ محرم من عام ٥٦٧هـ[١].

وقد شاهد شهاب الدين أبوالمعالي أفراح العباسيين في بغداد كما لاقى كل حفاوة وتكريم واستقبل استقبال الأبطال واقيمت له القباب وزُينت بغداد واغلقت الاسواق حتى ان مؤرخ العصر أبي الفرج بن الجوزي صاحب المنتظم قد الف كتابا بالمناسبة السعيدة أطلق عليه اسم «النصر على مصر»[٢].

---

(١) المقريزي: السلوك جـ١ ق١ ص٦٥.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/٢٣٧.

البنداري: سنا البرق الشامي ص ٦٠ (أقوال الأصفهاني) ويشير إلى ان العودة في نفس عام ٥٦٧هـ.

أبوشامة: كتاب الروضتين ١/١٩٧ - ١٩٨.

ويقول في ص ٢١٥ ان شهاب الدين أبوالمعالي قد عاد إلى نور الدين من بغداد عام ٥٦٨هـ. ومعه توقيع من الخليفة بدرب هارون وصريقين وخمسين ديناراً من دنانير النثار التي نثرت يوم دخل الشهاب إلى بغداد بالبشارة وان وزن كل دينار يساوي عشرة دنانير. ويقول أيضاً في ١/٨٤:

ان شرف الدين بن أبي عصرون والد الشهاب قد سفر إلى بغداد عام ٥٤٥هـ مما يدلنا على أن شرف الدين اشتغل بالسفارة قبل عام٥٦٦هـ. ويدلنا كذلك على اتصاله المبكر بنور الدين.

ابن واصل: مفرج الكروب ٢/٤٧٢.

ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٦٤.

المقريزي: السلوك جـ/١ ق١ ص٦٥.

ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية. تحقيق محمود زايد بيروت ص ٢٠٣.

وعاد شرف الدين إلى دمشق في ربيع الأول عام ٥٦٧هـ ومعه الخادم صندل موفداً من قبل الخليفة العباسي إلى نور الدين محمود بن زنكي ومعه الخلع والهدايا(١).

ثم ان نور الدين محمود ثقة منه بعبدالله بن أبي عصرون كان قد عهد له بقضاء مصر بعد أن فتحها نور الدين على يد قائده شيركوه عام ٥٦٤هـ وكان عهده كتابياً(٢).

ويستفاد مما ورد في الكتاب الموجه إلى ابن أبي عصرون إن نور الدين قد عهد إليه لكفاءته بعد ان خلت مصر من قاضٍ كفء وانه خاطبه قائلا: «ولا أقدر أولي امورها ولا أقلدها الاَّ لك حتى تبرأ ذمتي عند الله فيجب عليك وفقك الله أن تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها وتعمل ما تعلم انه يقربك إلى الله. وقد برئت ذمتي وأنت تجاوب الله فاذا كنت أنت هناك وولدك أبوالمعالي «شهاب الدين الذي ذهب بالسفارة إلى بغداد بعد سقوط الخلافة الفاطمية بالبشارة» وفقه الله فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي وقد كتبت هذا بخطي حتى لا يبقى علي حجـة تصل أنت وولدك عندي حتى اسيركم إلى مصر

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/٢٣٧ وهو اوثق المصادر في اعتقادنا في هذه النقطة لأنه اكثر معاصرة من غيره في بغداد.
البنداري: سنا البرق الشامي ص٦٢.
أبوشامة: كتاب الروضتين ١/٢١٥.
البنداري قد اسهب في الكيفية التي استقبل بها نور الدين صندل الخادم موفد الخلافة العباسية ويعدد ما أحضره من الهبات والهدايا لنور الدين وصلاح الدين كما يصف مراسم الاستقبال كاملة.
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٦/٦٣ ـ ٦٤.
ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية ص ٢٠٤.
(٢) أبوشامة: كتاب الروضتين ١/١٧٤.

والسلام بموافقة صاحبي واتفاق منه صلاح الدين وفقه الله فانه فيه شاكر كثير كثير كثير»[1].

ثم شهدت الفترة التي اعقبت وفاة محمود نور الدين زنكي عام ٥٦٩هـ، اضطراب الأمور في دمشق وبلاد الشام جميعها. ووصلت الأمور إلى درجة من التعقيد اورثت المتنازعين ضعفاً عاماً مما شجع الصليبيين ودفعهم إلى مهاجمة دمشق والمدن السورية الأخرى ولم يرتدعوا إلا بعد ان وقّعوا صلحاً مع دمشق دفعت بموجبه لهم الأموال الكثيرة.

وما هذا الاّ سلام مزعوم الهدف من ورائه فرض الاستسلام على المسلمين في بلاد الشام وتركهم تحت رحمة العدو الصليبي الغاشم، الأمر الذي أغضب صلاح الدين الذي بات يملك مقدرات مصر الهائلة ودفعه إلى تهديد امراء دمشق اللاهين اللاهثين وراء الحلول الاستسلامية وأن يرسل الرسائل إلى بعض الأمراء الذين يعتقد فيهم المقدرة والصلاح لافشال هذا النمط من الاستسلام والقضاء على هذا النوع من الاتفاقيات الخادعة.

ومن جملة الاشخاص الذين وجه اليهم رسائل بهذا الخصوص شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون. ومما جاء في الكتاب: «... وسيدنا الشيخ أولى من أطلق لسانه الذي تغمد له السيوف وتجرد وقام في سبيل الله قيام من يقطع عادية من تعدى وتمرد»[2].

وهذا لا شك فيه أمل بامكانية القضاء على اتفاق امراء دمشق مع الصليبيين وان شرف الدين بن أبي عصرون خير من يستطيع العمل على افشال هذا الاتفاق لاستقامته وقوة لسانه وجرأته التي لا تعرف في الحق لومة

---

(١) أبوشامة: كتاب الروضتين ١/١٧٤.

(٢) أبوشامة: كتاب الروضتين ١/٢٣١.

لائم. وما هذا التكليف الاّ لأن صلاح الدين كان متأكداً من هذا ولكنه يعجب لسكوت عبدالله بن أبي عصرون ويدفعه هنا إلى ممارسة دوره أمام الأمراء المخدوعين بالسلم الزائف في دمشق ويعول عليه كثيراً.

ثم تقدم صلاح الدين على رأس قواته بعد ان وطد الأمن في ربوع مصر إلى بلاد الشام ودخل دمشق دون مقاومة تذكر وبسط سلطانه وسيادته على المدينة بسهولة ويسر. ثم تقدم إلى غيرها من المدن والمواقع.

وحتى عام ٥٧٢هـ كان صلاح الدين قد سيطر على مساحة كبيرة من بلاد الشام ووسع ملكه على حساب الزنكيين هناك، فما كان من شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون الاّ أن قدم إلى دمشق والتقى بصلاح الدين فيها، فأحسن اليه لما كان بينهما من الود والاحترام منذ أيام نور الدين زنكي.

ثم جرت عدة تطورات في المنطقة أسفرت في النهاية عن استقالة قاضي قضاة الشام ضياء الدين الشهرزوري الذي خلف عمه كمال الدين الشهرزوري في نفس العام الذي مات فيه كمال الدين حيث عمل كل من عيسى الهكاري أحد امراء صلاح الدين والقاضي الفاضل ومن لف لفهما على الايقاع بضياء الدين وأجبروه على الاستقالة ففوض أمر القضاء إلى شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون[1].

ويجب ان ننوه هنا إلى أن صلاح الدين قد فوَّض الحكم والانفاذ والامضاء إلى شرف الدين بن أبي عصرون على ان يتولى محيي الدين بن الزكي النيابة له[2].

والمهم بعد حوالي مدة قصيرة ذهب بصر شرف الدين عبدالله وأصيب

(١) أبوشامة: كتاب الروضتين ١/٢٦٣.
(٢) المصدر السابق نفسه.

بالعمى، ويقول الأصفهاني : «فلما عدنا إلى الشام (من مصر) تكلم الناس في ذهاب نور عينيه «عينا شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون» وأنه لا يقوم في القضاء بورده وصدره ففوض السلطان القضاء بالاشارة الفاضلية إلى ابنه محيي الدين أبي حامد محمد، كأنه نائب عن أبيه ولا يظهر للناس صرفه عما هو متوليه».

إن مسألة تولية شرف الدين بن أبي عصرون لقضاء القضاة سنة ٥٧٢هـ تكشف لنا عن كثرة رصيد ابن أبي عصرون لدى صلاح الدين وكبار رجال دولته كالقاضي الفاضل وعيسى الهكاري وغيرهما.

ثم ان صلابة شرف الدين وتقدير الناس له وعلى رأسهم صلاح الدين الأيوبي حاكم البلاد والقاضي الفاضل سالا دون عزله عن منصب القضاء بعد أن ذهب بصره بل جعلا ابنه محيي الدين محمد نائباً عنه مع بقائه في منصبه وبقي الحكم الحقيقي له وما ابنه الا ستار أمام الناس[1].

ومهما يكن فظل ابن أبي عصرون يتمتع بمركز مرموق رغم اصابته بالعمى. فيروي الأصفهاني[2] ان ابن أبي عصرون صحب صلاح الدين في

---

(١) أبوشامة: كتاب الروضتين ١/٢٦٣.

(٢) أبوشامة: كتاب الروضتين ٢/٨٢.
ويصف الغنائم وبيع الأسرى وكيف ان رجلا وامرأته واولاده ثلاثة بنين وبنتان بيعوا جميعا بثمانين ديناراً فقط. وبيع واحد من الأسرى بنعل.
الاصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٣٥٥.
سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ/٨ ص ٣٩٤.
أبوشامة: كتاب الروضتين ٢/١٥٠.
الحنبلي: (احمد بن إبراهيم): شفاء القلوب في مناقب بني أيوب. تحقيق ناظم رشيد العراق. وزارة الثقافة ١٩٧٨ ص ١٢١ - ١٢٢. =

موقعة حطين. ولما بعث بما غنم من الغنائم إلى دمشق من أرض المعارك صحب ابن أبي عصرون رَكْبَ الغنائم عائداً إلى دمشق.

وان صح هذا وان المقصود بابن أبي عصرون هو شرف الدين فيكون اصطحابه للجيش في المعارك تقديراً له لقوة عباراته واسلوبه لتشجيع الجنود والهاب حماسهم في مقابلة العدو وهو الأعمى الذي لا حول له في القتال فلا أقل من ان يلهب حماس الجنود في المعركة. والاّ فالمقصود هنا ابنه أبوحامد محمد نائبه في القضاء.

وعلى العموم فقد بقي شرف الدين قاضيا رغم عماه وابنه محيي الدين ينوب عنه أمام الناس وإليه الحكم فيما يعرض له من قضايا. وظلت له المكانة المرموقة والتقدير وعامله صلاح الدين ورجال دولته وامرائها معاملة طيبة حتى وفاته عام ٥٨٥هـ[١]، حيث انفرد ابنه محيي الدين أبو حامد بالقضاء حتى عام ٥٨٧هـ[٢].

وهكذا نرى ان شرف الدين بن أبي عصرون كان له تأثير ظاهر في مجريات الحوادث إلى حد ما.. ولم يكن شخصية نكرة بل ويستحق ان يقدره نور الدين وصلاح الدين من بعد. لا بل يبني له نور الدين مجموعة من المدارس في أمهات المدن الشامية عرفت بالمدارس العصرونية اكراماً له

= حيث علل صلاح الدين تصرفه هذا بانه اراد اذلال هؤلاء الأسرى لعنادهم في الحرب.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/٥٥.
الصفدي: نكت الهميان ص ١٨٥.

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ص ١١٣.
ابن واصل. مفرج الكروب ٢/٥١.
ابن طولون: قضاة دمشق ص ٥١.

وتقديراً لشخصيته واعترافاً بفضله في ميدان العلم والسياسة.

ونرى هنا من واجبنا ان نتوسع بالكلام عن شخصيته العلمية اكثر من قبل. وقد مرَّ بنا ان نور الدين محمود زنكي قد استدعى شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون من سنجار عام ٥٤٥هـ وانشأ له المدارس السابقة الذكر وفوّض إليه أمر التدريس بها والاشراف الكامل عليها يعين من يراه أهلاً للعلم فيها[١].

ولكن شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون لم يكتف بما شيده له نور الدين زنكي من المدارس بل أضاف إليها مدرستان في حلب ودمشق واصبح بذلك علماً مشهورا في سائر العالم الإسلامي شرقاً وغرباً[٢].

ولعل اهم ما يدعم وجهة نظرنا هذه ويدلل على الشهرة التي بلغها ابن أبي عصرون في ميدان الفقه ما ذكره أبوشامه عن الدولعي خطيب دمشق من ان الفقهاء قد انقسموا بعد موت الحافظ المراري المتوفي عام ٥٤٤هـ[٣]، العرب والاكراد. فالعرب مالت إلى شرف الدين بن أبي عصرون ليصبح شيخ الفقه وكان في جهات الموصل وسنجار، والاكراد مالت إلى المسائل الخلافية وعلم النظر وطلبوا ان يستدعي القطب النيسابوري.

وعلى اثر ذلك تأزمت الامور في مملكة نور الدين الناشئة انذاك وحصلت فتنة كادت تؤدي إلى الضعف والإنقسام في وقت كان فيه المسلمون بحاجة إلى الوحدة والقوة. وخوفاً من ان ينتشر الضعف والفساد عمد نور الدين محمود زنكي صاحب حلب انذاك فاستدعى جماعة الفقهاء عرباً واكراداً إلى

(١) عمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام ص ١١٠.
(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ١/٢٨١.
النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/٤٠١.
(٣) الاسنوي: طبقات الشافعية ٢/٤٣٣.

القلعة ودفع اليهم مجد الدين ابن الداية يكلمهم نيابة عنه. وكان من امرائه ويثق به كثيراً. وفوَّضه ان يتكلم باسمه فقال: نحن ما اردنا ببناء المدارس الا نشر العلم ودحض البـدع من هذه البلدة واظهار الدين. وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق. وقـد قال المولى (نور الدين) نحن نرضي الطرفين ونستدعي ابن أبي عصرون والنيسابوري فاستدعاهما وولاهما مدرستين [1].

وبعد فاذا كانت هذه شهرة ابن أبي عصرون قبل ان يتصل بنور الدين ويمنحه ثقته ويقدم له عونه في ميدان العلم والسياسة وقبل ان يتصل بصلاح الدين السلطان، فكيف هي حاله بعد ذلك!!؟. لا شك في انها اكثر شهرة ويظهر هذا من الاعمال التي قام بها ابن أبي عصرون.

والمهم ان اختيار نور الدين لشرف الدين بن أبي عصرون جاء ليحل اشكالاً فقهياً ويخمد نار العداوة الفقهية وجاء موفقاً إلى ابعد الحدود ودلل على ان نور الدين يتمتع بملكة قوية في اختيار الرجال الافذاذ. فإنه عرف كيف يختار شخصية مرموقة لاخماد الفتنة وتطويق الشغب وتدلنا هذه الحادثة فيما تدل عليه حب نور الـدين زنكي لانشاء المدارس واهتمامه بالعلم والعلماء وتكـريمهم والاعـتراف بفضلهم كما تدلنـا على شهرة شرف الدين بن أبي عصرون قبل اتصاله بنور الدين محمود زنكي.

ثم تتجـلى لنـا شخصية شرف الـدين بن أبي عصرون قبيل استلامه منصب قاضي القضاة فقد استطاع ان يستقطب كبار رجال الدولة إلى جانبـة كالقـاضي الفاضل وعيسى الهكاري والاصفهاني ويجعلهم يعلمون

---

(١) أبوشامة: كتاب الروضتين ١/١٣.
بدران (عبدالقادر): منادمة الاطلال ص ١٣٣.

لصالحه بكل قوة حتى اعتلى سدة منصبه الرفيع إلى جانبهم في الدولة الصلاحية[1].

وتظهر هذه الشخصية في اقوى مراحل عمرها عندما أصيب ابن أبي عصرون بالعمى فقد تحدى كل الفقهاء الذين وقفوا ضده وتنكروا له وطعنوا بشرعية استمراره في منصبه القضائي الرفيع وصنف كتاباً في جواز قضاء الأعمى ودعم رأيه بالدليل الشرعي بنص رآه في كتاب الزوائد لأبي الحسن العمراني صاحب البيان. ومع غرابته تمسك به شرف الدين ونسج على منواله ودعم رأيه به[2].

ووقف منفردا أمام جميع الفقهاء وظل طوداً شامخاً حتى وفاته وشخصية لها تأثيرها في مجريات الاحداث لا تعرف الاستكانة ولا تنحني للعواصف.

وبعد فلا بأس هنا في ان نقف على شيء مما قضى به هذا الرجل الفذ الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون شيخ الشافعية بلا منازع. فقد تصدى لاحكام جريئة موفقة واثبت انه رئيس مدرسة في الفقه. فقد أفتى هو وطبقته امثال عبدالرحمن الغزنوي الحنفي ويونس بن منعة ومسعود النيسابوري بانه يصح للإمام ان يوقف قطعة من اراضي بيت المال على أي شخص يريده في حدود المنفعة العامة [3].

---

(١) أبوشامة: كتاب الروضتين ١/٢٦٣ حوادث عام ٥٧٢هـ.

(٢) ابن خلكان: وفيات الاعيان ٣/٥٤.

الصفدي: نكت الهميان ص ٦٠.

العيني: عقد الجمان مخطوط ميكروفيلم جامعة الكويت جـ/١٣ رقم ٦٠٢ ص ٧٦ - ٧٧.

ابن طولون: قضاة دمشق ص ٥٠.

(٣) السبكي: طبقات الشافعية تحقيق الحلو والطناجي. نشر عيسى الحلبي جـ٦ ط/١ ص ٤٦.

وينسجم مع هذا ما رواه أبوشامه[1] فقد ذكر أنه في ليلة التاسع عشر من صفر عام ٥٥٤هـ، حضر عند نور الدين في قلعة دمشق جماعة من الفقهاء والعلماء من ضمنهم شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون. وشرف الدين عبدالوهاب المالكي ودار الحديث حول أوقاف المساجد. واراد نور الدين ان يعلم ما الاوقاف الموقوفة بالضبط على كل مسجد وخاصة المسجد الأموي وما المضاف إلى اوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفاً عليه في الأصل وان يظهر كل منهم ما يعلمه حتى يقع الضبط عليه فتم له ذلك.

وبعد ذلك سألهم نور الدين عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخنادق للمصلحة المتوجهة للمسلمين؟ فافتى شرف الدين عبدالوهاب المالكي بجواز ذلك ومنهم من روى في مهلة النظر.

وأما شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون الشافعي قال: لا يجوز ان يصرف وقف مسجد إلى غيره ولا وقف معين لجهة إلى جهة أخرى غير تلك الجهة واذا لم يكن بد من ذلك فليس طريقة الا ان يقترضه مَنْ إليه الأمر في بيت المال فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجبا من بيت المال. فوافقه الأئمة الحاضرون على ذلك.

ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين هل انفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء الكلاسة من شأم الجامع وعلى انشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامي من الجامع وسائر العمارات المتعلقة بالجامع بغير اذن مولانا؟ وهل كان الا مبلغاً للأمر العالي في عمل ذلك؟ فقال نور الدين: لم ينفق شيء الا باذني وكتب محضراً

---

(١) أبوشامة: كتاب الروضتين ٢/١٧ ـ ١٨.

في كل ما تم النقاش والتوضيح به[1].

ونرى هنا أيضاً صلابة شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون وسداد رأيه وحسن تبصره بالأمور والتروي قبل اصدار الأحكام حتى ولو كان هذا في حضـوُر السلطان. فما احـرانـا الآن بالتمسك بهذا النهج القويم في الفتيا والقضاء وامضاء الحق دون ان تأخذنا فيه لومة لائم.

ثم ان موقفه عندما تحدى جميع العلماء عندما وقفوا يطعنون بشخصيته القضائية عندما أصابه العمى لدليل آخر على صلابة موقفه وثقته بنفسه حتى ولو وقف ضد جل الفقهاء الشافعية[2]. هذا مع العلم بأن صلب المذهب الشافعي لا يجيز هذا.

وكانت حجة الجمهور الذي نفى جواز الأعمى ترتكز على أن الأعمى لا يعرف الخصوم ولا الشهود. وحجة من جوز قضاءه تقوم على ان النبي شعيباً عليه السلام كان أعمى وظل مع ذلك نبياً والنبوة أرفع من القضاء. ولكن مما يسند حجة الخصوم الكثر ان شعيبا لم يثبت عماه بالدليل القاطع. ولو ثبت فالذين آمنوا به قلة وليسوا بحاجة إلى من يحكم بينهم. هذا بالاضافة إلى ان شعيبا يدعمه الوحي السماوي، ولا يتسنى هذا للقاضي[3]. ومع ذلك ثبت شرف الدين واحتج بما رأه في جمع الجوامع للمورياني[4].

---

(١) أبوشامة: كتاب الروضتين ٢/١٧ ـ ١٨.

(٢) الصفدي: نكت الهميان ص ٦٠.

(٣) الصفدي: المصدر السابق.

(٤) ابن خلكان: وفيات الاعيان ٣/٥٤.
الصفدي: المصدر السابق نفسه.
الطباخ الحلبي: اعلام النبلاء ٤/٢٨٠.
ويقول النص في كتاب الزوائد لأبي الحسن العمراني صاحب البيان. =

ان هذين الحُكمْـين يدلان دلالـة كافية على جرأة وشجـاعـة شرف الدين بن أبي عصرون الادبية في مجال القضاء ويكفيان ليرسما صورة مشرقة لشخصيته وتفهمه لروح النص لا لظاهره، وكان لا يهمه شيء ما دام يعتقد بأن الحق في جانبه وكان يتمسك به ولو وقف الجميع أمامه.

= العيني: عقد الجمان ميكروفيلم جامعة الكويت جـ/١٣ رقم ٦٠٢ ص ٧٦ ـ ٧٧ مصدر سبق ذكره.